تأسيس بعض مدن

سرّ من رأى

بقلم الكتن كرزول
استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب مفتش بمصلحة الآثار الاسلامية بمصر

يشتغل جناب الكتن كرزول استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول في اعداد مؤلف ضخم عن تاريخ العمارة الاسلامية منذ بزغ الاسلام وقد صدر المجلد الاول في سنة ١٩٣٤ وسيصدر هذا العام الجزء الثاني مشتملا على جميع الآثار التي شيدها المسلمون في البلدان الاسلامية حتى نهاية عصر الامويين وهذا احد فصول البحث الرائع الذي قام به

— ١ —

روى اليعقوبي في كتابه البلدان (ص ٣٨) تاريخ تأسيس مدينة سرّ من رأى ووصفها بما نصه :

« سرّ من رأى هي المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم وقد سكنها ثمانية خلفاء منهم المعتصم (ابن هارون الرشيد) . وهو ابتدأها وانشأها . والواثق وهو هارون بن المعتصم ، والمتوكل جعفر بن المعتصم والمنتصر محمد بن المتوكل والمستعين احمد بن محمد بن المعتصم والمعتز ابو عبد الله بن المتوكل والمهتدي محمد بن الواثق والمعتمد احمد بن المتوكل

قال احمد بن ابي يعقوب كانت سرّ من رأى في متقدّم الايام صحراء من أرض العَيْرهان لا عمارة بها وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة وصار الدير بيت المال . فلما قدم المعتصم بغداد منصرفه من طرسوس في السنة التي بويع له بالخلافة وهي سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) نزل دار المأمون ثم بنى داراً في الجانب الشرقي من بغداد وانتقل اليها فأقام بها في سنة ٢١٨ وسنة ٢١٩ وسنة ٢٢٠ وسنة ٢٢١ هـ . وكان معهُ خلق من الاتراك وهم يومئذٍ عجم

أعلمني جعفر الخشكي قال : كان المعتصم يوجهُ بي في ايام المأمون الى سمرقند الى نوح بن أسد في شراء الاتراك فكنت أقدم عليه في كل سنة منهم بجماعة . فاجتمع له في ايام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام (منهم طولون الذي انسب اليهِ احمد الدولة الطولونية بمصر) . فلما افضت اليه الخلافة ألحّ في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس . كان ممن اشترى

بغداد جماعة منهم اشناس وكان مملوكاً لنعيم بن خازم ابي هرون بن نعيم . وايتاخ كان مملوكاً لسلام بن الابرش . وبوغا كان زرّاداً مملوكاً لآل الشماس . وسيما الدمشقي وكان مملوكاً لذي الرآستين الفضل بن سهل . وكان اولئك الاتراك العجم اذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالاً فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدون على من فعل ذلك فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد

فخرج الى الشمّاسيّة وهو الموضع الذي كان المأمون يخرج اليه فيقيم الايام والشهور فعزم ان يبني بالشماسية خارج بغداد (شمال شرقي بغداد) مدينة فضاقت عليه ارض ذلك الموضع وكرّه ايضاً قربها من بغداد

فمضى الى البردان (شمال شرقي بغداد بنحو ميلين) بمشورة الفضل بن مروان وهو يومئذٍ وزير . وذلك في سنة ٢٢١ ﻫ (٨٣٦ م) واقام بالبردان اياماً واحضر المهندسين . ثم لم يرض الموضع فصار الى موضع يقال لهُ باجَمْشا من الجانب الشرقي من دجلة . فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده

فبعد الى القرية المعروفة بالمطيرة فاقام بها ثم مرّ الى القاطول فقال هذا أصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول

فابتدأ البناء وأقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واحتطت الاسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني لهُ وسكن بعض الناس ايضاً . ثم قال ارض القاطول غير طابة وانما هي حصى (احجار ؟) والبناء بها صعب جداً وليس لارضها لَمَيْسة (سمة ؟)

ثم ركب متصيداً فمرّ في سيره حتى صار الى موضع سرّ من رأى وهي صحراء من ارض الطيرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها الا دير للنصارى فوقف بالدير وكلم من فيه من الرهبان وقال ما اسم هذا الموضع . فقال لهُ بعض الرهبان : نجد في كتبنا المتقدمة ان هذا الموضع يسمى سرّ من رأى وانهُ كان مدينة سام بن نوح وانهُ سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر منصور لهُ اصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ينزلها وينزلها ولده . فقال أنا والله ابنيها وأنزلها وينزلها ولدي

ثم عرض (عزم) المعتصم على ان ينزل بذلك الموضع فأحضر محمد بن عبد الملك الزيات وابن ابي دواد وعمر بن فرج (فرج) واحمد بن خالد المعروف بابي الوزير وقال لهم اشتروا من اصحاب هذا الدير هذه الارض وادفعوا اليهم ثمنها اربعة آلاف دينار (الفي جنيه انكليزي) ففعلوا ذلك ثم احضر المهندسين فقال اختاروا أصلح هذه المواضع فاختاروا عدة مواضع للقصور وصيّر الى كل رجل من اصحابه بناء قصر

فصيَّر الى خاقان عرطوج ابي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني والى عمر بن فرح (فرج) بناء القصر المعروف بالعمري والى ابي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري

ثم خطَّ القطائع للقواد والكتاب والناس . وخط المسجد الجامع واختط الاسواق حول المسجد الجامع ورسمت سنوف الاسواق وجعلت كل تجارة منفردة وكل قوم على جدتهم على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد

وكتب في اشخاص الفعلة والبنائين واهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات. وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن الطاكية وسائر سواحل الشام . وفي حمل الرخام وفرش الرخام (وارسال صناعه) . فأقيمت بالاذقية وغيرها دور صناعة الرخام

وأفرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم لايختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم الاَّ الفراغنة . وأقطع اشناس واصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضمَّ اليه عدة من قواد الاتراك والرجال وأمره ان يبني المساجد والاسواق

وأقطع خاقان عرطوج واصحابه مما يلي الجوسق الخاقاني . وأمر بضم اصحابه ومنعهم من الاختلاط بالناس . وأقطع وصيفاً واصحابه مما يلي الحير ممتدًّا . وصيرت قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة النجم بعيدة من الاسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره

ثم اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهنَّ ومنعهم ان يتزوجوا ويصاهروا الى احد من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض وأجرى للجواري الاتراك ارزاقاً قائمة وأثبت اسماءهنَّ في الدوازين . فلم يكن يقدر احد منهم يطلق امرأته ولا يفارقها

ولما أقطع اشناس التركي في آخر البناء مغرباً واقطع اصحابه معه وسمى الموضع الكرخ وأمره ان لايطلق لخريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم ولا يطلق معاشرة المولدين

فأقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه الدُّور وبنى لهم في خلال الدور والقطائع المساجد والحمامات وجعل في كل موضع سويقة فيها عدة حوانيت للقاميين والقصابين ومن اشبههم ممن لابد لهم منه ولا غنى عنه

وأقطع الافشين حيدر بن كاوس الأسروشني في آخر البناء مشرقاً على قدر فرسخين وسمى الموضع المطيرة . فأقطع اصحابه الاسروشنية وغيرهم من المضمومين اليه حول داره . وأمره ان يبني فيها هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لا بد منه ومساجد وحمامات واستقطع الحسن بن سهل بين آخر الأسواق . وكان آخرها الجيل الذي صار فيه خشبه (جية) بابك

وبين المطيرة موضع قطيعة افشين وليس في ذلك يومئذ شيء من العمارات ثم احدثت العمارة به حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرّ من رأى . وامتد بناء الناس من كل ناحية واتصل البناء بالمطيرة وجعلت الشوارع لقطائع قواد خراسان واصحابهم من الجند والشاكرية. وعن يمين الشوارع ويسارها الدروب فيها منازل الناس كافة وكان الشارع المعروف بالسرجة (السرية) وهو الشارع الاعظم ممتدّ امن المطيرة الى الوادي المعروف في هذا الوقت بوادي اسحق ابن ابراهيم لان اسحق بن ابراهيم انتقل من قطيعة في ايام المتوكل فبنى على رأس الوادي واتسع في البناء

ثم قطيعة اسحق بن يحيى بن معاذ ثم تتصل قطائع الناس يمنة ويسرة في هذا الشارع الاعظم وفي دروب من جانبي الشارع الاعظم تنفذ الى شارع يعرف بأبي احمد وهو ابو احمد بن الرشيد من احد الجانبين وتنفذ الى دجلة وما قرب منها من الجانب الآخر وتمر القطائع الى ديوان الخراج الاعظم وهو في هذا الشارع الكبير . وفي هذا الشارع قطائع قواد خراسان منها قطيعة هاشم بن بابيجور ؟ وقطيعة عُجَيْف بن عَنْبَسة وقطيعة الحسن بن علي المأموني . وقطيعة هرون بن نعيم وقطيعة حرام (حزام ؟) بن غالب

وظهر قطيعة حرام (حزام) الاصطبلات لدواب الخليفة الخاصة والعامة يتولاها حرام ويعقوب اخوه ثم مواضع الرَّطّابين وسوق الرقيق في مربعه فيها طرق متشعبة فيها الحُجَر والغُرَف والحوانيت للرقيق ثم مجلس الشرط والحبس الكبير ومنازل الناس والاسواق في هذا الشارع يمنة ويسرة مثل سائر الباقات والصناعات ويتصل ذلك الى خشبة (جبة) بابك ثم السوق العظمى لا تختلط بها المنازل كل تجارة منفردة وكل اهل مهنة لا يختلطون بغيرهم

ثم الجامع القديم الذي لم يزل يجمع فيه الى أيام المتوكل فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرف الحير . المسجد الجامع والاسواق من احد الجانبين ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل واسواق اصحاب الباقات الدنية مثل اصحاب الفُسَّاغ والهراريس والشرّات (الشربات ؟) وقطيعة راشد المغربي وقطيعة مبارك المغربي وسويقة مبارك وجبل جعفر الخيّاط. وفيه كانت قطيعة جعفر ثم قطيعة ابي الوزير ثم قطيعة العباس بن علي بن المهدي . ثم قطيعة عبد الوهاب بن علي بن المهدي وينتهي الشارع وفيه قطائع العامة الى دار هرون بن المعتصم وهو الواثق عند دار العامة وهي الدار التي نزلها يحيى بن اكثم في ايام المتوكل لما ولاّه قضاء القضاة ثم باب العامة ودار الخليفة وهي دار العامة التي يجلس فيها يوم الاثنين والخميس

(وعلى ذلك فالاطلال المعروفة الآن بيت الخليفة هي بقايا قصر المعتصم والايوان الكبير هو باب العامة)

ثم الخزائن خزائن الخاصة وخزائن العامة ثم قطيعة مسرور سمانة الخادم والي الخزائن ثم قطيعة فرقاس الخادم وهو خراساني ثم قطيعة نابت الخادم ثم قطيعة أبي الجعفاء وسائر الخدم الكبار . والشارع الثاني يعرف بأبي أحمد وهو أبو أحمد بن الرشيد أول هذا الشارع من المشرق ودار بختيشوع الطبيب (الطبيب — وهو احد افراد اسرة سريانية اشتهرت بتعاطي الطب. وقد كان هؤلاء الناس حلقة الاتصال بين العلوم القديمة — اليونانية وغيرها — والحضارة الاسلامية) التي بناها في أيام المتوكل ثم تطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب ومن اهل قم وأصبهان وقزوين والجيل وأذربيجان بمة في الجنوب مما يلي القبلة فهو نافذ الى شارع السرنجة الاعظم. وما كان مما يلي الشمال ظهر القبلة فهو نافذ الى شارع ابي احمد ديوان الخراج الاعظم وقطيعة عمر وقطيعة الكتاب وسائر الناس وقطيعة ابي أحمد بن الرشيد في وسط الشارع وفي آخره مما يلي الوادي الغربي الذي يقال له وادي ابراهيم بن رياح قطيعة ابن ابي دؤاد وقطيعة افضل بن مروان وقطيعة محمد بن عبد الملك الزيات وقطيعة ابراهيم ابن رياح في الشارع الاعظم

ثم تتصل الاقطاعات في هذا الشارع وفي الدروب الى يمنه ويسرته الى قطيعة بُغا الصغير ثم قطيعة بغا الكبير ثم قطيعة سيما الدمشقي ثم قطيعة برمش ثم قطيعة وصيف القديمة ثم قطيعة ايتاخ ويتصل ذلك الى باب البستان وقصور الخليفة

والشارع الثالث شارع الجير الاول الذي صارت فيه دار أحمد بن الخصيب في ايام المتوكل فأصل هذا الشارع من المشرق ومن الوادي المتصل بوادي اسحق بن ابراهيم وفيه قطائع الجند والشاكرية وأخلاط الناس ويمتد الى وادي ابراهيم بن رياح

والشارع الرابع ويعرف بشارع بُرْغامُس (برغامش) التركي فيه قطائع الاتراك والفراغنة فدروب الاتراك منفردة ودروب الفراغنة منفردة والاتراك في الدروب التي في القبلة والفراغنة يأتونهم بالدروب التي في ظهر القبلة لا يخالطهم احد من الناس . وآخر منازل الاتراك وقطائعهم قطائع الجزر مما يلي المشرق . وأول هذا الشارع من المطيرة عند قطائع الافشين التي صارت لوصيف وأصحاب وصيف ثم يمتد الشارع الى الوادي الذي يتصل بوادي ابراهيم بن رياح

والشارع الخامس يعرف بصالح العباسي وهو شارع الاسكر (العسكر؟) . فيه قطائع الاتراك والفراغنة . والاتراك ايضاً في دروب منفردة . والفراغنة في دروب منفردة ممتدة من المطيرة الى دار صالح العباسي التي على رأس الوادي. ويتصل ذلك بقطائع القواد والكتاب والوجوه والناس كافة ثم شارع خلف شارع الاسكر يقال له شارع الحَرِيْر (الجير؟) الجديد فيه أخلاط من الناس من قواد الفراغنة والاسروشنية والاشتيخنية؟ وغيرهم من سائر كور خراسان . وهذه الشوارع التي من الجير كلما اجتمع الى اقطاعات لقوم هدم (اي الخليفة) الحائط (أي كل ما قرب

من الحائط من اقطاعات الناس كان يضم الى الحير) وبنى خلفه حائطاً غيره . وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمر الوحشي والايايل والارانب والنعام وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة

والشارع الذي على دجلة يسمى شارع الخليج وهناك الفرش والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكلكر وسائر السواد من البصرة والابلة والاهواز وما اتصل بذلك ومن الموصل وتكريت وديار ربيعة وما اتصل بذلك . وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم او اكثرهم والموضع المعروف بالاولاج (بالازلاخ ؟) الذي بالرجالة المغاربة في اول ما اختطت سرّ من رأى . واتسع الناس في البناء بسرّ من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد وبنوا المنازل الواسعة . الا ان شربهم جميعاً من دجلة مما يحمل في الروايا على البغال وعلى الابل لان آبارهم بعيدة الرشاء ثم هي مالحة غير سائغة فليس لها اتساع في الماء . وبسكن دجلة قرية فيها روايا كثيرة . وبلغت غلات وستغلات سرّ من رأى واسوانها عشرة آلاف الف درهم في السنة . وقرب محل ما تؤتى به من الميرة من الموصل وبعربايا وسائر ديار ربيعة في السفن في دجلة فصلحت اسعارها . ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الاساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة وهو جانب سرّ من رأى عقد جسراً الى الجانب الغربي من دجلة فانشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة وحفر الانهار من دجلة وصيّر الى كل قايد عمارة ناحية من النواحي وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد . وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الشرقي بسرّ من رأى وصلح النخل ونبتت الاشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه وحسن الريحان . وزرع الناس أصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب وكانت الارض مستريحة ألوف سنين . فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاشناقي وما عليه والابناخي والعمري والبيد الملكي وداليه بن حماد والمسروري والعربات المجدية (المحدثة) وهي خمس قرى والقرى السفلى وهي سبع قرى والأجنة والبساتين وخراج الزرع اربعمائة الف دينار في السنة

وأقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملاً من الاعمال او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغروس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض

وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها . وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر وحمل من الكوفة من يعمل الخزف ومن يعمل الأدهان . ومن سائر البلدان من اهل كل مهنة وصناعة . فأنزلوا بمحالهم بهذه المواضع واقطعوا فيها . وجعل هناك اسواقاً لاهل المهن بالمدينة

وبنى المعتصم العمارات قصوراً وصيّر في كل بستان قصراً فيه مجالس وبرك وميادين فحسنت

العمارات ورغب وجوه الناس في ان يكون لهم بها ادنى ارض وتنافسوا في ذلك وبلغ الجريب من الارض مالاً كثيراً ومات المعتصم بالله سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) . وولي الخلافة هارون الواثق بن المعتصم » اهـ اليعقوبي

ولم يقتصر المعتصم على جلب العمال وأهل المهن والصناعات وأشخاصهم الى سرّ من رأى بل أمر بحمل المواد اللازمة للبناء أيضاً

ويقول الأب انبا سويرس بن المقفع (أسقف مدينة الأشمونين) بكتابه سير البطاركة القديسين ص ٢٨٢ و٢٨٦ في سيرة الأب أنبا يوساب (يوسف) البطرك . بعد ان روى كثيراً من أخبار مصر وحوادثها في عهد المأمون والمعتصم (ما نصه):—

« وكان الحرب قد أقام أربعة عشر سنة ينهم الى أن ملك ابراهيم أخو المأمون وحصل محفظة على طريق الحبشة والنوبة . . . ص ٢٨٢

« وفي ذلك الزمان أخذ الملك ابراهيم الى مصر أن يؤخذ من انبيع في كل مكان العمد والرخام . وكان الواصل في هذا الطلب انسان مخالف مبغض من النسطورية اسمهُ العازر . فلما وصل الى مصر اجتمع اليهِ أهل مذهبه النجس الذي هم المراطقة الخلقدونيين المغيين بالاسكندرية ولم يزالوا يسعوا بالبيع ليلاً ونهاراً وحسنوا له ان يهدم بيع مدينة الاسكندرية وكانوا يبتلوه على المواضع الذي فيها العمد والبلاط فيأخذهم غصباً يده . فلما أخرجوه الى بيعة الشهيد ماري مينا بمريوط من كثرة جسدهم لها وقالوا له ليس يشبهها شيئاً من البيع وان كلما توجهت لطلبه تجده فيها فقام ذلك النسطوري مسرعاً بمشورة السعاة ودخل الى بيعة الشهيد ماري مينا بمريوط فلما نظر اليها والى زينتها وحسن ما فيها من العمود الرخام الملون تعجب وبهت وقال هذا الذي يحتاج اليهِ الملك هذا ها هنا ولم أظن به فلما سمع أبونا أنبا يوساب البطرك ان ذلك الانسان السوء لم يمنع يده لما في قلبه من السوء والبغضة (ولما لنفوسه المخالفين) فقال له هو ذا كل البيع الذي بحكمي بين يديك فافعل فيها ما أمرك بهِ الملك وهذه البيعة فقط أحب منك ألاَّ تعترضها . ومهما التمستهُ مني سلمتهُ اليك . فلم يسأل المخالف قوله ولا سؤاله بل يجاوبه مواجهة بما لا يجب ثم بدا وأخرج من البيعة الرخام الملون والبلاط المعدوم الذي هو قائم من كل لون وليس له نظير ولا يعرف له ثمن . فلما وصل الرخام الى مدينة الاسكندرية لينفذوه الى مدينة الملك حزن الاب حزناً عظيماً على البيعة . وقال أنا أعلم أنك تقدر أيها الشهيد القديس أن تأخذ حقك من هذا المخالف الذي لم يوقر بيتك الذي هو عزاء لجميع المؤمنين ولم يفتر الليل والنهار من هذا الحزن الذي حل بهذه البيعة المقدسة وكان مهتماً بعمارتها الخ »

[يتبع]